المجمع 11 (2016/1438)، 105-132

صورة بنات الماء في الكتب العربية

عبد الحي العباس*

من هن بنات الماء؟

لم أتوقع من زميلي هذا السؤال، ولم ينتظر مني، في الآن نفسه، أن أنكر وجود هذه الصيغة المعجمية في اللغة العربية؛ لأنني لم يسبق لي أن سمعت بها. وعلى الرغم من اقتناع زميلي بجهلي بهذه الوحدة اللغوية فقد طلب مني بلطف أن أمده لاحقا بمدلول يكشف حقيقة **بنات الماء** مع وصف مركّز على طبيعة العلاقة بين الماء والبنات.

لم أتردد في قبول الطلب، ورجعت إلى بعض المعاجم، بصفة سريعة، لمعرفة المراد من هذه الوحدة المعجمية فلم أجد ما يشبع فضولي ويرضي قناعتي. ومن ثم تابعت عملية البحث والتقصّي والتوغّل، فاقتنعت حينذاك أن صيغة **بنات الماء** باعتبارها وحدة معجمية، جديرة بأن تكون موضوع بحث علمي يلائم منهج البحث في القضايا الدقيقة. ومن ثم عقدت العزم، متوكلا على الله سبحانه وتعالى، على جمع ما يرتبط بهذا الموضوع محاولا رسم **صورة بنات الماء** واستخراجها، على الأقل، من أشهر الكتب العربية التي حصرتُها في:

1. **كتب المعاجم**
2. **كتب الأخبار**
3. **كتب السرد**

1. كتب المعاجم

1.1. في متاهة المعنى المعجمي

لا شك أن أول إجراء يقوم به الباحث لمعرفة مدلول أي وحدة معجمية هو البحث في المشهور من المعاجم العربية. وبما أن **لسان العرب**[1] معجم بُني على مجموعة من المعاجم الأصول حسب ما هو منصوص عليه في مقدمته[2]، فقد تبين أن البحث فيه عن تعريف **لبنات الماء** بحث غير

---

* كلية اللغة العربية – مراكش.

(1) ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، ط:1، بيروت، 1990.

(2) لسان العرب، ص: 7،8.

مفيد من الناحية الإجرائية؛ وسبب ذلك خلوّه من مدخل معجمي[1] خاص بهذه الوحدة. وهكذا، قد نستنتج بكل بساطة أن غياب مدخل معجمي لهذه الوحدة في **لسان العرب** علامة على عدم وجودها. بيد أن النفي القاطع بهذا الشكل غير مقبول من الناحية العلمية؛ لاحتمال وجودها ضمن مداخل معجمية أخرى. وفي حال ما إذا كان هذا الأمر واردا فإن هذه المداخل تبقى مجهولة في هذا المستوى من البحث. ولذلك ارتأينا أن نوسع من لائحة المعاجم؛ فوجدنا، نتيجة ذلك، أن حال **"تاج العروس**[2]**"** شبيهة بحال **لسان العرب**.

وهنا انحرف بنا السؤال الأصل إلى أسئلة من نوع آخر. ما هي علة غياب هذه الوحدة المعجمية من لسان العرب وتاج العروس بوصفها كتبا تمثل المعجم العربي بصورة عامة؟ أيتعلق الأمر بخلل في تقنيات التوثيق المنهجي، وبسهو في صناعة المعاجم؟ أم أن الأمر يتعلق بغياب تصور ثقافي عما تمثله هذه الوحدة للواقع الطبيعي؟

إذا فحصنا مقاصد السؤال الثاني وجدنا أن زمرة من الكتب العربية ــ التي سنعرضها لاحقا ــ قد وظّفت **بنات الماء** بطرق متعددة. ومن ثم تكون قد منحتها معاني متعددة ودلالات مختلفة؛ الأمر الذي يثبت أن **بنات الماء** قد تأسست على تصور ثقافي اختارته اللغة العربية بحسب جملة من المقولات الرمزية والقيم الاجتماعية والأنساق الثقافية. وعلى أساس هذه الإشارة المسبقة يسقط هذا السؤال. أما السؤال الأول فالظاهر أنّه تجاوز ما سجلته المعاجم السابقة من فراغ يتوقف على الاطلاع على كتب أخرى تكون قد اشتغلت بالبحث المعجمي بمناهج مختلفة. وهكذا، وقفنا على إشارة هامة في معجم **"مقاييس اللغة**[3]**"** مفادها أن هناك طائرا يُنسب «**إلى الماء للزومه له**[4]» يعرف باسم **"ابن ماء"**.

بناء على هذه الإشارة إلى مدلول **المذكر** من هذه الكائنات، تصبح **بنات الماء** صنفا من الطيور التي تجعل الماء محيطها الطبيعي، وتلزمه؛ لتعلق حياتها بما فيه. وبهذا النمط من التحليل نكون قد عثرنا على تحديد معنى معجمي لا يوجد في الكثير من المعاجم السابقة نحو **لسان العرب وتاج العروس**. ونكون قد وقفنا، في الوقت نفسه، على جواب السؤال الأصل **"من هن بنات الماء؟"**

(1) قصدنا من المدخل المعجمي ما يعرف في أدبيات التوثيق بمادة "بني" مثلا.

(2) الزبيدي، تاج العروس، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي، ب.ت.

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979، مادة: بني.

(4) المخصص، باب البنات.

لكن الأمر ليس بهذا اليسر فيما يبدو، لأننا إذا قبلنا بهذا التحديد المعجمي وتأملنا في محتواه فإن ما يثيرنا فيه هو إغراقه في **التعميم**، بمعنى أن الطيور التي تلزم الماء فصائل كثيرة وأنواع متنوعة؛ ولذلك يصبح التعريف خاليا من أي قرينة يفهم منها، على الأقل، أن المراد من **بنات الماء** طيور البحر مثلا، أو طيور البحيرات الصغيرة، أو طيور المياه الراكدة، أو طيور المياه الجارية. ومن ثم تؤدي بنا فكرة **التعميم** إلى الاعتقاد بأن إشارة ابن فارس غير وظيفية في صياغة تعريف معجمي لـ**بنات الماء**؛ الأمر الذي يفرغ العمل المعجمي من أغراضه: وهي **التخصيص والتعيين والتمييز**. وعلى أساس غياب هذه الوظيفة قد نُلحِق **"مقاييس اللغة"** بما سبق من المعاجم لنعمّم الحكم السابق: وهو خلو المعجم العربي من مدخل معجمي محدد ينتظم فيه كل ما يتعلق **ببنات الماء** من **تعريف وتحديد وأقوال** وغيرها، مما هو معروف في الوحدات المعجمية الأخرى.

قد يكون هذا الحكم ملائما بناء على هذا الضرب من الاستدلال، غير أن قبوله بهذه الصورة يثير اضطرابا يحتاج إلى أن نبحث في كتب أخرى، نظن أنها ابتعدت عن التحديد المعجمي وتعريفاته لتقارِب وحدةَ بنات الماء برؤى مغايرة.

يقتضي منا تجاوز هذا الاضطراب، فيما يبدو، خلخلة البحث المعجمي لتنويع مكوناته وتجريب مختلف آلياته. وهكذا، إذا قبلنا كتاب **أساس البلاغة**[1] باعتباره معجما شبيها بالمعاجم العربية من حيث الشكل والبناء فإننا وقفنا على إشارة صغيرة، نظن أنها تقودنا إلى إدراك محتوى **بنات الماء**. وفي ذلك يقول الزمخشري: «وصادوا **بنات الماء** وهي الغرانيق[2]».

تستوقفنا في هذا التعريف مسألتان اثنتان:

تثير **المسألة الأولى** قضية **صيد** بنات الماء، وهي قضية دفعتنا إلى البحث في ما يتعلق بالأحكام الفقهية التي حددت ما يجوز اصطياده في خمسة وهي:« أن لا يكون متقويا بأنيابه أو مخلبه، وأن لا يكون من الحشرات، **وأن لا يكون من بنات الماء سوى السمك**، وأن يمنع نفسه بجناحيه أو قوائمه، وأن يموت بهذا قبل أن يوصل إلى ذبحه»[3]

(1) الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ب/ت

(2) أساس البلاغة، مادة: بني.

(3) «وخمسة في الصيد: منها أن لا يكون متقويا بأنيابه أو مخلبه، وأن لا يكون من الحشرات، وأن لا يكون من بنات الماء سوى السمك، وأن يمنع نفسه بجناحيه أو قوائمه، وأن يموت بهذا قبل أن يوصل إلى ذبحه» شمس الدين أحمد بن

واضح إذن، أن مدلول بنات الماء في النص عام جدا لاشتماله ليس على الطيور التي تلزم الماء فحسب، وإنما يراد منه السمك أيضا[1]. وهذه حال تثبت بقوة قلق المعجم العربي في ضبط المدلول في هذه الوحدة المعجمية ضبطا يتأسس على التخصيص والتحديد والتمييز. ومن ثم إذا فُهم السمك والطيور من بنات الماء فالظاهر أن أصول هذا الفهم تتجاوز بكثير المقومات المعجمية، إذ مسوّغ الجمع بين السمك والطيور هو الماء، وهذا المسوّغ غير كاف لفهم ذاك وإسقاط ذلك. وهكذا تأتي الإشارة الفقهية إلى أن **بنات الماء** محرّم صيدها باعتبارها طيورا فقط[2].

وتثير المسألة الثانية قضية مدلول بنات الماء؛ إذ الظاهر أن الزمخشري لم يقيد مدلول الغرانيق بمحددات تعريفية أخرى، تمكن القارئ العربي من أن يكوّن لنفسه تصورا مفيدا يطمئن إليه؛ بل ترك ذلك، تحت إيعاز آخر بغير شك، الغرانيق بوصفها وحدة معجمية مفتقرة إلى التعيين والتحديد والتمييز. وهذا ما يسمح لنا بأن ننعت تعريف الزمخشري بالعمومية.

بيد أن إشارة الزمخشري هاته تكمن قوّتها في الدفع بالبحث عن معنى الغرانيق في المعاجم السابقة نحو **لسان العرب**.

وبهذا الإجراء بدأت تتضح معالم المعنى المعجمي. فقد تبين أن للغرانيق معنيين. الأول **حقيقي** فيما يبدو، ويراد به صنف من طيور الماء التي تشبه الكراكي والمكاكي وما يشبهها، ومن المعروف عن هذه لزومها الماء. والثاني **مجازي** ويراد به عدد من الصفات التي قلّما تجتمع في الرجل، وهي «**الأبيض الشاب الناعم الجميل**»[3].

وإذا فحصنا الكيفية التي عالج بها **لسان العرب** كلمة الغرانيق أدركنا أن معناها المجازي هو المستعمل بشكل مطرد في الثقافة العربية؛ بدليلنا أن مختلف الشواهد الشعرية واللغوية

قودر المعروف بقاضي زاده، **تكملة شرح فتح القدير المسمى: نتائج الأفكار في كشف الرموز والأسرار**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1995م، 10/ 129.

(1) جعل ابن الرومي السمك بنات دجلة في قوله:

وبنات دجلة في بيوتكم مأسورة في كل معترك

ديوان ابن الرومي، تحقيق: عبد الأمير علي مهنا، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت 1991، مجلد 5/ص:6

(2) إذا قبلنا الحكم الشرعي بتحريم صيد بنات الماء باعتبارها طيورا، فمسوغ الاستشهاد بها عند الزمخشري قد يثير أسئلة موضوع بحث آخر.

(3) لسان العرب، مادة: غرنق.

والمأثورات التي وظفها **ابن منظور** في معجمه تميل كلَّ الميل إلى إظهار المعنى المجازي لكلمة الغرانيق، الأمر الذي يمنحها قيمة مهيمنة تخفي المعاني الأخرى. وعلى الرغم من ذلك، تبقى العلاقة الرابطة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي حاضرة بقوة، وقائمة بثبات؛ لأن الكراكي والمكاكي **طيور بيضاء ناعمة وجميلة، ولرشاقتها وخفتها فهي في حكم الفتوة والشباب**. ونظرا إلى كثرة استعمال كلمة الغرانيق وتداولها في اللغة العربية بمعناها المجازي فإنها تستحق أن نطلق عليها أم الصفات لأن في قول الزمخشري: «قلوب النساء مع الغرانيق»[1] ما يؤكد هذا الفهم.

عند حدود هذه النتائج يتبين لنا أن اشتغالنا بعدد هام من المعاجم العربية لم يسعفنا في فهم **بنات الماء**، على الرغم من **عمومية معنى الطيور** من جهة، وعلى الرغم من محاولة الزمخشري التي ركزت على إظهار الاستعمالات البلاغية المشهورة في الثقافة العربية من جهة ثانية. ولعل اضطراب مدلول **بنات الماء** بين المعنى **الحقيقي** وبين المعنى **المجازي** راجع، فيما يبدو، إلى غياب مبادئ معجمية دقيقة باعتبارها أسس نظرية دلالية تنبني عليها الوحدة المعجمية، وتتأصل عليها أبعادها الوظيفية بها.

2.1. في عمومية المعنى بين النحو والمعجم

إذا تأملنا بنات **الماء** من ناحية البناء اللغوي وجدناها مركبة **تركيبا إضافيا**. وفي هذا التركيب ما يدل على اتصال هذه الطيور بالماء ولزومها له. ومن منطلق دلالة الانتساب هاته، يتبين أن للتركيب الإضافي وظيفتي **التعريف والتخصيص**[2]، حسب ما تشير إليه كتب النحو العربي. ف**تعريف** الوحدة اللغوية باعتبارها **مضافا نكرة** يتحقق حينما تنضاف إلى **معرفة**، نحو: "دار **عمرو** قريبة". وأما **تخصيصها** باعتبار ما سلف فيتحقق حينما تنضاف إلى **نكرة**، نحو: "غلام **رجل** قادم".

ومن هنا، إذا كانت معالم التعريف منبثقة من تركيب الصياغة اللغوية **لبنات الماء** فإن هذه المعالم غير وظيفية، لأن التعريف النحوي مختلف عن التعريف المعجمي. فالوحدة اللغوية في الأول تكتسب تعريفا صوريا يتمثل في معرفة العلاقة الشكلية التي تربط وحدة لغوية بأخرى، ومن

(1) أساس البلاغة، مادة: غرنق.

(2) «...فالمعنوية ما أفاد تعريفا كقولك: دار عمرو أو تخصيصا كقولك: غلام رجل» ابن يعيش، شرح المفصل، دار صادر، ب . ت، 2/118.

ثم يكون هذا الضرب من التعريف هو نوع من تمييز الوحدات اللغوية حسب ما تؤديه من وظائف نحوية. وأما تعريف الوحدة اللغوية معجميا فينبغي أن يتجه إلى وصف محتوى ما تشير إليه الوحدة اللغوية، وما تمثله من تصور مضبوط يكون العقل قد قام بعميلة تجريده من الواقع الطبيعي. وعلى هذا الأساس يستمد **التعريف** في النظرية النحوية وظيفته وقوته من مجموع القرائن النحوية داخل الجملة؛ أما **التعريف** في النظرية المعجمية فإنه يتأسس على صياغة معنى خاص، غالبا ما يكون نواتيا أولا، ويكون واضحا ثانيا على الرغم من غياب قرائن الجملة.

نستنتج انطلاقا من هذا التحليل، أن **بنات الماء** تبقى مفتقرة إلى تعريف معجمي يحدد مدلولها على الرغم من استثمار وظيفة بنائها اللغوي. ومن ثم يثير قبول مثلِ هذا الاستنتاج ضربا من المفارقات التي تثير نوعا من الاندهاش؛ ويتضح ذلك حينما نجد أن المعجم العربي قد ضم مجموعة هامة من الوحدات المعجمية المبنية بناء إضافيا، وفيها تقلدت كلمة «**بنات**» وظيفة المضاف. ولتوضيح ذلك نعرض المتن التالي:

- بنات المسند: صروف الدهر.
- بنات معى: البعر.
- بنات مخر(بخر): سحائب يأتين قبل الصيف منتصبات.
- بنات غير: الكذب.
- بنات بئس: الدواهي.
- بنات صهال: الخيل.
- بنات الأرض: الأنهار الصغار.
- بنات الليل: المنى.
- بنات الصدر: الهموم.
- بنات المثال: النساء، والمثال الفراش.

ما يلاحظ من هذا المتن هو أن مدلول كل وحدة من هذه الوحدات المعجمية محدد بدقة الأمر الذي يثبت استقلال كل وحدة بمحتوى خاص. ومعنى ذلك أن وحدات هذا المتن ليست من صنف الاشتراك اللفظي أو الترادف أو الأضداد؛ وإنما وحدات معجمية قد خضعت مدلولاتها لضرب من الضبط التام والوصف الدقيق، الأمر الذي يُفقد التركيب الإضافي وظيفته النحوية، ليتصور على أنه شبيه ببنية لفظية مسكوكة لا علاقة لها بما كان عليه مدلول **المضاف** بمعزل عن مدلول

المضاف إليه. ومعنى ذلك أن كلمة «**بنات**»، وهي العنصر الثابت في المتن، تفقد كل مدلول يحيل على معاني **الأنوثة** ومعاني **الأمومة** وما يرتبط بهما من علاقات القرابة الأسرية، ولكنها في المقابل تكتسب مدلولات أخرى تتمحور، فيما يظهر، حول معنى **الانتماء** وما يقتضيه هذا المفهوم من تعالق الفروع بالأصل. ويكفي الاطلاع على متن ضخم من الكتب اللغوية الهامة، نحو: **المزهر** للسيوطي[1]، و**أساس البلاغة**[2] للزمخشري، والكثير من المعاجم العربية للاستدلال على هذا التصور، وللبرهنة على أن اللغة العربية قد اختارت التعبير عن علاقة معينة[3] بين عنصرين بإسناد كلمة بنات إلى كلمة أخرى إسنادا إضافيا، يؤسس لها مدلولُ **الانتماء الأنطولوجي** ضربا من الدلالات الخاصة. فضيق الصدر مثلا، لا يكون إلا بكثرة الهموم. ولهذا اعتُبرت الهموم بنات الصدر، ومن ثم اختارت الثقافة العربية أن تجعل الصدر موطنا تجتمع فيه الهموم وتلزمه لها. والحال نفسها تنطبق على النهر والصهيل والكذب والكلمات؛ إذ **النهر** لا يكون إلا في الأرض و**الصهيل** ليس إلا صوت الخيل، و**الكذب** هو غير الصدق، أي قول بدون اعتبار أصوله، و**الكلمات** هي بنات الشفاه، لما بين الشفتين والألفاظ من علاقة متينة. وهكذا يتضح أن هذا الإجراء الذي يقوم على مبدأ التغليب سلوك لغوي يعبر عن توجّه ثقافي خاص.

ما يلاحظ إذن من هذا التحليل أن المتن السابق يشمل وحدات معجمية عملت آليات المعجم على بنائها بدقة ووضوح، ومما يلاحظ أيضا أن آليات بناء وحدات هذا المتن قد اتبعت إجراءين منتظمين؛ عمِل أولهما على تأسيس مدلول الانتماء الأنطولوجي باعتباره معنى عاما، في حين اكتفى ثانيها - بعد أن انسلخ من آثار القيود النحوية - بتوليف المركّب الإضافي وسبكه ليخصصه بمدلول معجمي محدد؛ غير أن ثاني الإجراءين لم ينطبق على وحدة بنات الماء، لأن الانتماء الأنطولوجي الذي تتوفر عليه غير كاف ليجعلها وحدة معجمية تمتلك كل مقومات التحديد المعجمي[4].

(1) السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه: محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الفكر، ب/ت، 1/524.

(2) أساس البلاغة، مادة: بني.

(3) يظهر أن بناء اللغة العربية لهذا الضرب المحصور من الوحدات المعجمية بهذا النمط لم يكن إلا استجابة لحاجات اجتماعية وثقافية تجسّد خصوصية الثقافة العربية.

(4) قال الشاعر:

سَيُغْني أبا الهندي عن وَطْب سالم ... أباريقُ لم يعلَق بها وَضَرُ الزّبد

مقدمةٌ قزا، كأنّ رقابَها ... رقاب بنات الماء أفزَعَها الرعْدُ

من استشهد بالبيتين الشعريين حسب علمنا كتابان اثنان:

وهكذا نقول إذا كانت بنات الماء باعتبارها وحدة معجمية قد عرفت نوعا من القلق والاضطراب على مستوى التحديد المعجمي، فالظاهر أن ذلك يعود إلى أسباب متعددة نرى أنها تشكل موضوع بحث آخر.

2. كتب الأخبار

تطالعنا كتب الأخبار[1] بعدد هام من النصوص التي سجلت بعض الأحداث والقضايا المتعلقة **ببنات الماء**. غير أن ما يلاحظ في هذه النصوص هو تضارب محتواها وتباين أخبارها إلى حد التناقض في كثير من الأحيان كما سيظهر لاحقا، الأمر الذي لا يسمح بتكوين رؤية مناسبة عن **بنات الماء**. ولهذا سنحاول أن نصنف هذه النصوص حسب الموضوعات التي اهتمت بجانب من جوانب **بنات الماء**.

1.2. بنات الماء ومرجع الأنوثة.

يعرف المسعودي[2] (ت: 346ه) **بنات الماء** قائلا:

«ومنها خلق بحرية على شبه النساء يقال لها بنات الماء، في صورة النساء الحسان، ذوات الشعور السبط، لها فروج عظام وثدي، كلامهم لا يكاد يفهم، لهم قهقهة»

ونقل الدميري[3] (ت: 808ه) عن المسعودي التعريف نفسه بالصفات نفسها قائلا:

---

1. **لسان العرب** لابن منظور، وقد ورد ذكرهما في سياق توضيح مدلول **الوضر** وشرحه. وفي معرض الشرح والتوضيح أشار ابن منظور إلى أن **بنات الماء** هي الغرانيق. مادة: **وضر**.
2. رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، وقد وظف المعري البيتين في سياق حديثه عن الأباريق وما لها من معان متنوعة وكثيرة. انظر رسالة الغفران، تحقيق: درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2005، ص: 58.

(1) إذا كانت المكتبة العربية غنية بكتب الأخبار والرحلة، فإن ما يميز هذا الضرب من الكتب هو تسجيلها لعدد من الأحداث المختلفة، والوقائع المتنوعة التي ارتبطت بالحروب والغزوات، أو تعلقت بالمواقف السياسية أو اصطدمت بالتجارب الاقتصادية نتيجة التبادل التجاري في البر والبحر. ولهذا يصعب تصنيف هذه الكتب في مجالات علمية محددة. وإذا عرفت هذه الكتب باسم كتب الأخبار فإن موضوعات تمس الشعر والفقه والتصوف والتاريخ والبلاغة والفلك والغناء وغيرها، الأمر الذي يخول لنا أن نقول إنها مبثوثة في كل مجالات الفكر العربي.

(2) المسعودي، أخبار الزمان، دار الأندلس، الطبعة الرابعة، 1980، ص:39.

(3) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1995، ص: 152.

«هي سمك ببحر الروم، شبيهة بالنساء ذوات شعر سبط، ألوانهن إلى السمرة، ذوات فروج وعظام وثدي، وكلام لا يكاد يفهم، ويضحكن ويقهقهن»

ولا يختلف تعريف الأبشيهي[1] (ت: 842 هـ) عن سابقيْه على الرغم من عرضه لبعض الصفات الزائدة في **بنات الماء**:

«ومن ذلك بنات الماء، وهم أمة ببحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدي وفروج، وهن حسان ولهم كلام لا يفهم، وضحك ولعب، ولهن رجال من جنسهن.»

تستوقفنا في هذه النصوص جملة أمور نعرضها على الشكل الآتي:

1. موضوع هذه النصوص هو **بنات الماء**. وما دامت النصوص متشابهة في وصف محتواها إلى درجة كبيرة، فإننا نعدها نصا واحدا ولاسيما إذا علمنا أنّ بعضها مأخوذ من بعض.
2. بتأمل خفيف في وصف هذه النصوص لبنات الماء نجد أنها **اضطرت** إلى تشغيل منهج المقارنة بكل مكوناته: نسوة بني آدم وبنات الماء والمشترك بينهما والمختلف فيه. لكن المثير في الأمر هو أن اللجوء إلى منهج المقارنة دون غيره كان أمرا اضطراريا؛ لسبب نراه مركزيا وهو أن بنية الموضوع الخاضع لعملية الوصف قد وقع الخرق فيه. ومن ثم سينحرف بنا التحليل قليلا للبحث عن مسوغ هذا الاضطرار عساه أن يساعدنا على وضع اللبنات الأولى لصورة بنات الماء.

لننطلق إذن، من فرضية تقول إن المتلقي العربي كان يجهل جهلا تاما **بنات الماء** في اللحظة الأولى التي تلقى فيها هذا الكائن الخارق بطريقة مباشرة: في البحر أو النهر بحسب إشارة النصوص السابقة إلى محيطها، أو بطريقة غير مباشرة: السماع أو القراءة. ولذلك ينبغي أن يفهم الجهل في هذه الحال على أنه سلوك طبيعي؛ لأنه يسجل الاصطدام الأول للعقل البشري مع الطبيعة. وهو اصطدام ينطوي على جملة من المعطيات التي ينبغي استحضارها حتى ندرك الأساس المقبول الذي قام عليه مفهوم الجهل. وهكذا يظهر جيدا أن المتلقي في لحظة تلقيه لهذا الكائن الخارق عمد إلى أن يفهمه على ضوء ما يمتلكه ذهنه من مخزون ثقافي استجابة لسؤال المعجم: **ما هذا؟** وحينما وجد هذا المتلقي أن مخزونه المعجمي لا يسعفه على إدراك هذا الكائن لجأ مضطرا، في الغالب العام، إلى مقارنته بما هو معهود لديه من قبل، عوض أن يمنحه معنى جديدا يوسع بذلك، ما لديه من المعاني الثقافية والقيم الاجتماعية.

(1) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1993، ص:399.

يسعفنا هذا التصور إذن، على أن نفهم الأساس المقارن الذي اعتمدته النصوص في وصف بنات الماء، وهو وصف يتخذ من المخزون المعجمي مرجعا لصياغة هذا الكائن الخارق ضمن منظومة الضوابط الثقافية. ولهذا، لما كانت عملية المقارنة قائمة مبادئ التشبيه، وهي آلية تقيد المجرد بالمحسوس وتقرن المجهول بالمعروف، مالت هذه النصوص في وصف **بنات الماء** بنوع من التركيز، إلى عرض الخصائص المشتركة بينها وبين نسوة بني آدم، مع الإشارة الخفيفة في آن واحد، إلى أن المختلف فيه بينهن قد انحصر في **الانتماء إلى البحر والكلام الذي لا يفهم**. وهاتان الخاصيتان غير كافيتين لتركيب صورة **بنات الماء**.

3. لم تصف كتب الأخبار هذه الكائنات من الناحية الموروفولوجية وصفا تاما، بل كان ناقصا؛ وسيظل كذلك ما لم تتم الإشارة إلى وصف الأعضاء التي يفترض وجودها بالفعل، باعتبارها أعضاء تمييزية خاصة، لها وظيفة الانتماء إلى عالم الماء والعيش في البحر؛ لأن بذكر هذه الأعضاء الخاصة مع وصف مكوناتها تتحقق، من الناحية النظرية، غايتان:

تمكّن **الغاية الأولى** القارئ من أن يتمثل **بنات الماء** على أنها كائنات منتمية إلى الماء بالفعل، الأمر الذي يقتضي منه، على مستوى الإدراك، أن يضع حدا فاصلا بينه وبينها قياسا على الكائنات الطبيعية المصنفة، بكل بداهة، وفق معيار الاجتماع والتعايش والتوالد. ونظن أن استحضار هذه الغاية تشكّل مرحلة ضرورية لتكوين صورة عن كائنات خاصة بالبحر.

أما الغاية الثانية فإنها تزود القارئ بقيمة معرفية هامة؛ ومعنى هذا أن اشتغال النصوص من منظور الانسجام المفترض في آلية المقارنة بين مكونات الاختلاف والاشتراك في موضوع **بنات الماء** يؤسس تراكما معرفيا معينا. فإذا ما قارنا، على سبيل المثال لا الحصر، بين **فرس البحر والحصان** فإن المشترك بينهما هو شكل الرأس، في حين أن المختلف فيه عناصر أخرى. ولهذا تكون المقارنة بهذه البساطة قد منحت لكائن بحري (فرس البحر) موقعا ذهنيا ضمن المواقع المتعددة التي تحتلها صور الموجودات الأخرى. وهكذا، نستنتج أن اشتغال نصوص الأخبار بهذا الإجراء يثبت امتلاكها لبنية المحددات المعجمية والمقومات التعريفية بقيمها العلمية.

انطلاقا من المعطيات التي استحضرناها لفهم نصوص كتب الأخبار فهمها فهما ملائما تبيّن لنا أن هذه النصوص لم تسلك الاتجاه المعرفي من ضبط المشترك بين بنات الماء وبين نسوة بني آدم، وتحديده تحديدا يمكن من رسم معالم ثابتة لهذا الكائن الخارق، وإنما اتجهت المقارنة إلى التركيز،

بشكل خاص[1]، على عرض الأعضاء التناسلية وتقديمها دون غيرها من الأعضاء العضوية الأخرى. وهذه طريقة في الوصف، نظن أنها لا تنبني على خلفية إديولوجية، ولا على أساس معرفي غرضُه **التعريف** بهذه الكائنات من الناحية المورفولوجية وتقريبها من القارئ بوصفه متلقيا لم يسبق له أن عرفها من قبل؛ وإنما القصد من هذا الوصف، فيما يبدو، **إثارة الخبر والتركيز على ندرته** وعلى **غرابة** كائناته؛ لأن لذلك أثرا قويا في المتلقي.

2.2. بنات الماء والغرابة في المتعة الجنسية

أكان إغفال نصوص كتب الأخبار لذكر الأعضاء الفزيولوجية التي تمكّن **بنات الماء** من الانتساب إلى البحر مقصودا أم غير مقصود؟

تأتي مشروعية السؤال من طبيعة المقارنة الحاضرة بقوة بين نسوة بني آدم و**بنات الماء**؛ إذ يقتضي عرضُ نقط الاختلاف والتشابه ذكرَ بعض الأعضاء التي تختص بها هذه الكائنات مثل الزعانف والذيل وما يماثلهما في الوظيفة. بيد أن المعنى المفهوم من الوصف المذكور ينحصر في عرض أوجه الاختلاف بين **بنات الماء** وبين نسوة بني آدم في **الانتماء إلى الماء والكلام الذي لا يفهم**، أما عناصر الاختلاف فهي مسكوت عنها.

يقتضي منا هذا السؤال أن نوسع من دائرة البحث ما دامت المنطلقات العلمية التي بيّناها من قبل لا تجوّز أن نتجاهل ما أغفلته النصوص السابقة.

يتابع المسعودي[2] حديثه عن **بنات الماء** قائلا:

«وحكى بعض البحريين أن الريح ألقتهم إلى جزيرة فيها شجر، وأنهار عذبة، وأنهم كانوا يسمعون ضوضاء وضحكا، فكمنوا لهن وأخذوا منهن امرأتين فأوثقوهما. وأقامتا مع اللذين أخذاهما يقعان عليهما في كل وقت ويجدان لهما لذة عجيبة، وأن أحدهما وثق بصاحبته فأرسلها من وثاقها فهربت إلى البحر ولم يرها بعد ذلك، وبقيت الأخرى، فلما حصلت في المركب رحمها صاحبها فحل وثاقها فحملت منه وولدت له ولدا ذكرا، وأنهم ركبوا في البحر فلما حصلت

(1) لنحدد الوصف الذي يركز على عناصر دون غيرها بالوصف التبئيري La description focalisée

(2) أخبار الزمان، ص: 39. وقد نقل الأبشيهي الخبر نفسه بدرجة معينة من التفصيل عن القزويني، انظر: المستطرف في كل فن مستظرف، ص: 399.

في المركب وقدّر أنها لا تزول عن ابنها، فغفلته ووثبت في البحر، فلما كان بعد ذلك بيوم، ظهرت له وألقت إليه صدفا فيها درّ نفيس.»

أما الأبشيهي[1] فيختم تعريفه السالف قائلا:

«إن الصيادين يصطادونهن، فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء، ثم يعيدونهن إلى البحر ثانيا.»

لمعالجة هذه النصوص لا بأس من الوقوف على مصدر الخبر وعلى بناء محتواه:

أما مصدر الخبر فهو أحد صيادي السمك في البحار، ومن ثم ينبغي أن يؤخذ الخبر على أنه ممّا يتداول قولا بين عامة الصيادين، وهذا ما يدفعنا إلى ألا نبحث عن واقعية الخبر أو عدم واقعيته؛ وإنما يدفعنا إلى استحضار قيمة الخبر وأهميته لأنه استحق، بشكل أو آخر، أن يوثقه جملة من العلماء العرب القدامى المهتمين بعلوم الجغرافيا والتاريخ.

وأما محتواه فهو العلاقة الجنسية بين الإنسان وبين جنس مغاير، بيد أنه محمل بعدد هام من القضايا التي أدت بنا صياغتها إلى عرض أسئلة أخرى.

ومن ذلك، أن النصين جعلا العالم الطبيعي بكل مكوناته خادم للإنسان، وهذا فهم مقبول لأن اللغة بمختلف أنساقها ملك الإنسان. ومن ثم، فإذا كانت إشارة الأبشيهي إلى طبيعة هذه الاستفادة الجنسية بكل بساطة فإننا نجد أن نص المسعودي قد توسع قليلا، ليكشف لنا عن فكرة ضمنية وهي حضور سلطة الإنسان وقوته على فرض نمط حياته الاجتماعي على هذا الكائن. وهي فكرة تتضمن أيضا، بطريقة معكوسة، محدودية سلطته ونسبية قوته. وفي نص المسعودي ما يظهر درجات متفاوتة في تعلق الأنثى بولدها بين الكائنات الطبيعة.

ومهما يكن من أمر ما يفهم بنوع من التوسع من النصين من مختلف القضايا، فإن الأساس فيهما هو الكيفية التي بني بها خبر العلاقة الجنسية بين الإنسان وبين بنات الماء باعتبارها كائنات بحرية. وقد اتجه شكل بناء الخبر إلى التركيز على وصف العلاقة الجنسية وما يتعلق بها؛ وهو بذلك قد ساهم في أن ينحرف وصف **بنات الماء** عمّا يُنتظر منه في قضية المحددات المعجمية. وللاستدلال على هذا الانحراف نستحضر معطى موضوعيا يتحقق في امتلاك النصين واحتوائهما على قرائن سردية تمكّن أصلا، من الوصف الفزيولوجي الدقيق لهذا الجنس؛ لأن في

(1) المستطرف في كل فن مستظرف، ص: 399.

المعاشرة الجنسية ما يدعو إلى التمعن في جسم **الآخر**، والتأمل في جزئيات صغيرة منه؛ ومن ثم إذا كان الجسم مغايرا للآخر وغريبا عنه فإن فحص أعضائه ومكوناته من الإجراءات البسيطة التي يقوم العقل البشري بشكل تلقائي. فكيف غاب ذلك عن مصدر الخبر على الرغم من وقوع بعض البحريين على بنات الماء مدة طويلة، وإنجاب إحداهن ولدا ذكرا.

هكذا نستنتج إذن، أن الغرض من وصف **بنات الماء**، حسب النصوص السالفة، هو إظهار مدلول الغرابة من هذا الخبر، والعجب من تركيب عناصره المتباعدة؛ بيد أن العجب ولم يكن من الكائنات في حد ذاتها طالما أنها كائنات بحرية شبيهة بنسوة بني آدم شبها كبيرا، بل كان العجب من نتائج العلاقة الجنسية، بدليل أن النَّشوة كانت رفيعة، واللذة كانت راقية حسب شهادة النصوص:

. «**ويجدان لهما لذة عجيبة**»[1]

. «**فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء**»[2]

وقد نوسع من استنتاجنا هذا حينما نقول إن غرابة الخبر قد تمركزت في الجمع بين موضوعين أحدهما مبني على الآخر، وهما موضوع **الجنس** في الثقافة العربية وما يرتبط به من أقوال ونوادر وأخبار، وموضوع العلاقة الجنسية بجنس مغاير.

ومن ثمّ إذا كان الاطمئنان لهذا الاستنتاج غير تام فإن السؤال يظل قائما، ويبقى البحث عن الجزء الغائب من صورة **بنات الماء** مطلبا ضروريا، ما دام التحليل يسعى إلى الوقوف على جلّ ما يتعلق بهن. لذا لا بأس من البحث في كتب أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها.

3.2. بنات الماء والمحددات الفزيولوجية

1.3.2. مقبولية الخبر ودرجة الانسجام

يعد كتاب «**تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**»[3] لأبي حامد الغرناطي (ت: 565هـ) من المصادر الهامة التي عالجت جملة من أخبار العجائب والغرائب. وإذا كان القزويني قد اعتمد عليه بشكل كبير في إنجاز **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، إلى درجة يستشهدُ به في

(1) أخبار الزمان، ص: 39.

(2) المستطرف في كل فن مستظرف، ص: 399.

(3) أبو حامد الغرناطي، تحفة الألباب ونخبة الأعجاب، تحقيق: إسماعيل العربي، دار الآفاق، الجديدة، الطبعة الأولى.

كثير من مواطن كتابه فإن في ذلك إقرارًا بقيمة ما سجله الغرناطي من قضايا فكرية وموضوعات مختلفة تثبت حضور العقل المعرفي بمقوماته التاريخية والاجتماعية والفكرية.

ومما استوقفنا في كتاب «تحفة الألباب...» روايته لخبر وجدناه مرتبطا بموضوع بحثنا لأنه يساهم بشكل مغاير، إلى جانب النصوص الأخرى، في تشكيل صورة **بنات الماء**. يقول الغرناطي[1]: «حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم سنة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذنها وجعلوا فيها من الحبال وجروها فانفتحت أذنها وخرجت منها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء **ومن سرتها إلى نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلقة يتصل بجسدها يستر حيا وجسدها كالإزار دائر عليها** فأخذها الرجال إلى البرّ، وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وثديها وتصيح، وتفعل كما تفعل النساء في الدنيا حتى ماتت في أيديهم.»

من الواضح أن نص الغرناطي قد ابتعد عن موضوع العلاقة الجنسية، لأن منطق تسلسل الأحداث في الخبر لم تمكّنه من ذلك، إذ في موت بنت الماء: «الجارية» نهايةٌ لكل احتمال. بيد أن الإضافة في نص «تحفة الألباب...» هي الوصف المفصل لهذا الكائن. فقد شمل التفصيل في صفات بنت الماء قسمين: قسم أول تضمن جملة من الأوصاف التي، نذهب إلى، أنها تشكل بنية الذوق العام للمرأة الجميلة في الثقافة العربية[2]. وقسم ثان رسم «الجارية: بنت الماء» وفق

(1) نفسه، ص: 139.

(2) في الشعر العربي ما يؤكد ذلك:

يقول امرؤ القيس في وصف جمال المرأة بشكل عام:

تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعي عيطل أدماء بكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثديا مثل حق العاج رخصا ... حصانا من أكف اللامسينا
ومتني لدنة سمقت وطالت ... روادفها تنوء بما ولينا
ومأكمة يضيق الباب عنها ... وكشحا قد جننت به جنونا

ويقول النابغة الذبياني في بياض المرأة:

بيضاء كالشمس، وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

وفي الموضوع نفسه يقول ذو الرمة:

جملة من **المحددات الوصفية والخصائص المميزة**، باعتبارها خصائص تنسجم مع فكرة انتماء هذا الكائن إلى البحر. والظاهر من غير شك، أن شقّيْ الوصف في «تحفة الألباب...» مبنيان على مكونيْ هذا الكائن؛ فهو مركب من جزء علوي لا يختلف عن المرأة في شيء، ومن جزء سفلي لا يختلف عن سمكة ضخمة إلا في بعض المقومات الدقيقة.

وهكذا نصل إلى بلورة الفكرة الأساس، وهي أن الخبر في «تحفة الألباب...» يكتسب، بهذه المحددات درجة من المقبولية؛ لأنه يقوم على وضع حدود فاصلة بين عالمين مختلفين عالم الإنسان وعالم الحيوان؛ ولأنه يبيّن، في الآن نفسه، معالمها من خلال وصف فزيولوجي لجملة من أعضاء بنت من **بنات الماء**؛ الأمر الذي يجعل من العلاقة الجنسية بين المتغايرين موضوعا يتعقد تتبعه عند القدماء بدرجة من الموضوعية العلمية.

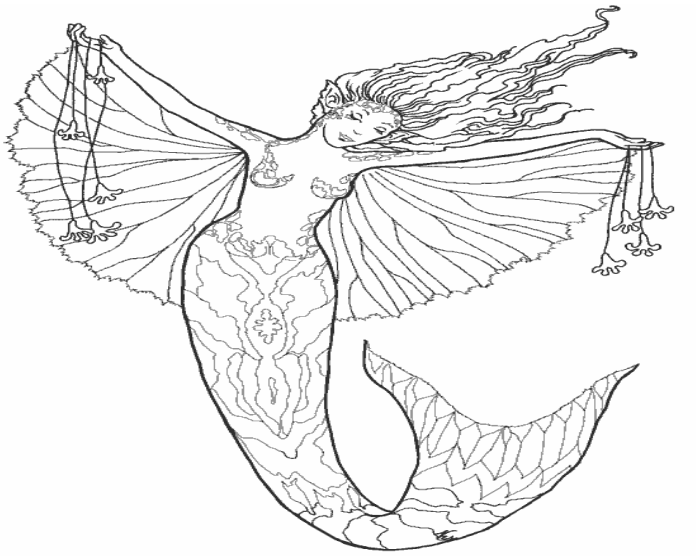

بيضاء في دعج صفراء في نفج كأنها فضة قد مسها ذهب

ويقول كعب بن زهير في البردة متغزلا فيمن لها أرداف مع نحافة بطنها:

هَيْفاءُ مُقْبِلَةً عَجْزاءُ مُدْبِرَةً لا يُشْتَكى قِصَرٌ مِنها ولا طُولُ

نستنتج إذن عند هذ المستوى من التحليل، أن في نص الغرناطي تطورا معينا في معالجة صورة بنات الماء؛ لأن القيمة التي أضافتها «تحفة الألباب...» قد نسجت على صورة **بنات الماء** مسحة من الاحتمال والإمكان، بدليل المعطيات الموضوعية الآتية التي رافقت رواية الخبر وعرضه:

1. توثيق الخبر، والتصريح بنقله بعد سماعه من أحد التجار. وينطوي هذا المعطى، فيما يبدو، على أن الغرناطي كان يجمع أخبارا كثيرة ويختار منها ما يستحق التوثيق لقربه من الممكن وقوعه.
2. احترام رواية الخبر لمقام البحر وما يحيط به من معطيات زمانية، ومكونات مكانية. وهذا ما يدفع المتلقي إلى الاطمئنان إلى ما تورده المعارف الإنسانية عن عالم البحر.
3. نهاية الأحداث في الخبر توافق منطقا سرديا تمثل في موت الجارية، لأنها كائن بحري تستحيل حياته في غير البحر، ولعل هذا مظهر من مظاهر انسجام بنية الخبر.
4. انطواء البحر على ألغاز كثيرة، واحتواؤه على أسرار متنوعة. وفي هذا إشارة إلى أن البحر لم يكشف بعد عن كلّ كائناته، الأمر الذي يسوغ تداول القول المشهور:«حدث عن البحر ولا حرج»

ومن هنا إذا افترضنا أن ما أغفله الوصف في النصوص السابقة (المسعودي والأبشيهي) موجود، بشكل ما، في خبر الغرناطي فإن في ذلك معطى علميا يتيح لنا عرض بعض المسلمات التي تمكننا وصف هذا الضرب من النصوص. وهي على الشكل الآتي:

1. تعدّ **الخصائص المميزة** المذكورة في **التحفة** تتمة لما نقُص من النصوص السابقة.
2. تعد النصوص السابقة جزءا لا يتجزأ من تأليف **جماعي** ساهم في بلورة محتواه كلّ من اهتم بتوثيق أخبار العجائب والغرائب.
3. بناء على المسلّمتين يقوم استنتاجنا الأخير على قناعة ترى أن مبدأ تداول العلوم العربية، وأخبار الشعوب عن طريق الرواية كان أمرا مستحبًّا لدى العلماء القدماء، ومطردا فيما بينهم.

2.3.2. سعة الخبر وتوسع المحددات الوصفية

من بين الكتب التي وجدناها قد ساهمت في رسم معالم **بنات الماء** في التراث العربي كتاب

«**عجائب الهند برّه وبحره** [1]». وتعود أهمية الكتاب إلى قيمته الكبرى التي حصرنا بعض مظاهرها فيما يلي:

1. شكّلت منطقة الشرق الأقصى بتاريخها وشعوبها وبجزرها وبتنوعها الجغرافي مصدر أخبار متنوعة حسب جملة من معايير التوثيق[2].
2. كثيرة هي الأخبار التي وردت في الكتاب مشتركة مع كتاب الغرناطي وكتاب القزويني.

وقد جاء خبر **بنات الماء** في هذا الكتاب في سياق الحديث عن رحلة تجارية، تاهت فيها السفينة إلى منطقة لم يكن التجار يعرفونها. ونظرا إلى أن نص الرحلة طويل ارتأينا للاختصار أن نقف على المقاطع الآتية:

الأول:« أدخلنا التيار جزاير[**جزرا**][3]، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن، على ساحلها نسوة يعومون ويسبحون ويلعبون [**يعمن ويسبحن ويلعبن**]، فأنسنا بهم (...) فلما قربنا منهم [**منهن**] تهاربوا [**تهاربن**] إلى الجزيرة، وجاءنا رجال ونساء عقال[**عقلاء**] عارفون. فلم ندر لغتهم، فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم [**منهم**] وفهموا عنا [**منا**]»[4]

تضمن النص إشارة إلى صنفين من سكان هذه الجزيرة: مثّل الصنف الأول النسوة اللواتي شاهدهن الراوي/التاجر يلعبن ويسبحن، ثم هربن لما قرب منهن أصحاب المركب. ويفهم من هذه الإشارة أن الراوي لم ينتبه إلى ما يخصص هؤلاء، ولم يعر أدنى اهتمام لفرارهن، ظنا منه، في الغالب، أنهن لا يختلفن عمّا يعرفه من نساء العالم. ويمثّلُ الصنف الثاني من سمّاهم النص بالرجال والنساء العقلاء. والظاهر أن صفة "العقل" مكنت هذا الصنف من أن يشغل مرتبة اجتماعية عالية، بدليل ريادة هؤلاء في الحوار مع أصحاب المركب، عن طريق الإشارة.

(1) برزك بن شهريار الناخداه الرام هرمزي، **عجائب الهند بره وبحره**، تحقيق المستشرق: ب.أ. فان درليت، دار ومكتبة بيبليون، سلسلة الجغرافية والرحلات عند العرب 5، لبنان، 2009.

(2) وردت كل الأخبار في الكتاب موثقة بسند الرواية، نحو:«وحدثني أبو الحسن علي بن شادان السيرافي قال«...» ونحو: «وحدثني من أثق بقوله أنه شاهد في بلاد الهند...»» انظر ص:62 و ص:147 في: عجائب الهند بره وبحره.

(3) ما سنعرضه بين معقوفين تصحيح لغوي ارتأينا ضرورة القيام به، لأن الكتاب لم يحقق بمفهومه العلمي، وإنما ما يفهم من بيانات وجه الكتاب هو إخراج النسخة من شكلها المخطوط إلى شكلها المطبوع.

(4) عجائب الهند بره وبحره، ص: 30.

الثاني: «فأتوْنا **بالرقيق** ما رأينا أحسن منه ضحكا، يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة[1] وأجسام كأنها الزبد نعومة ويكادون يطيرون خفة ونشاطا **غير أن رؤوسهم صغار، وتحت كشح كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة** لا تغادر. فقلنا لهم: «ما هذا؟» فتضاحكوا وقالوا :«أهل هذه الجزيرة **كلهم كذلك** وما عليكم من ذلك»[2]

لفهم مدلول هذا المقطع نستحضر ما يلي:

1. أدى حوار عقلاء الجزيرة مع أصحاب المركب إلى إتمام صفقة المقايضة.
2. ما عرضه هؤلاء العقلاء للتبادل التجاري بنات الماء باعتبارهن رقيقا.
3. انتباه الرواي إلى أن لبنات الماء أعضاء بيولوجية يمتزن بها عن غيرهن، إذ الظاهر أنهن خلقن وفي أسفل أجسامهن ما يشبه الزعانف. وهذا معطى وصفي يفسر انتماء هؤلاء البنات إلى الماء. وهذا مسوغ جعل من هذه المحددات الوصفية معيارا فزيولوجيا للتصنيف الاجتماعي، بدليل مفهوم الرقيق في الثقافة العربية.

الثالث: «... وقلنا هذه فرصة، ورأيناها غنيمة. فاشترى كل منّا بجهد ما عنده من الأمتعة ومعظمه، وفرّغنا المركب من البضايع وشحنّاه رقيقا (...) فشحنا المركب بخلق ما رأى الراؤون أحسن منه ولا أجمل (...) وطمعنا وطمع ربباننا في العودة بمركبه (...) فلما غابت الجزيرة بكى الرقيق الذي معنا فضاقت صدورنا (...) فقام الرقيق جميعهم [بعد ذلك] يرقصون ويغنون ويتضاحكون فأعجبنا ذلك منهم (...) فما أن أصاب هؤلاء منا غفلة [حتى] تطايروا، والله، في البحر تطاير الجراد والمركب يجري في موج كالجبال، وكالبرق الخاطف (...) ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوسهم ذلك إلا باقتدار لهم على هول البحر»[3]

إذا تجاوزنا بعض التفاصيل المتعلقة بالنشاط التجاري، وبما كانت عليه حال البحر من اضطراب قوي فإن ما يلاحظ في هذا المقطع هو تسجيله لبعض القضايا التي سبق الغرناطي أن عرضها؛ ويتعلق الأمر بخاصية الجمال التي توسع المقطع في عرضها. فقد انحصرت خصائص بنات الماء الجمالية في اثنتين:

(1) قد يكون تحريف عذبة، أي جميلة وفاتنة.

(2) عجائب الهند بره وبحره، ص: 31.

(3) نفسه، ص: 31 – 32.

الأولى فزيولوجية: وقد عبر عنها النص بفتوة الجسم وخفته ورشاقته ونعومته وليونته.

الثانية سلوكية: وقد تمثلت في الرقص والغناء والضحك.

الرابع:« وسـرنا إلى بلاد الهند (...) فلما سـمعوا [سـمع] الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزاير بعينها أُخذ [منها] صـغيرا وبقي في الهند إلى أن هرم، فقال: «أنتم وقعتم إلى جزاير تسـمى جزاير الحوت وهي بلدي، ونحن قوم نزل رجالنا على إناث حيوان البحر واضـطجعت نسـواننا لذكران الحيوان بالبحر فتنتج بينهم خلق مشـتهون بين هؤلاء وأولائك، فيجتمع المشـتهة ومشـتبه المشتهة، وذلك في قديم الدهور [الدهر]»[1]

يثبت هذا المقطع أن كتاب (عجائب الهند...) لم يخرج عما تداولته الكتب السابقة من موضوع العلاقة الجنسية بين جنسين متغايرين

وعلى هذا الأساس اكتشف الراوي/ التاجر لاحقا أن الصنف الأول من أهالي الجزيرة هم الرقيق، لأنه من ضمن ما عرض عليهم للمقايضة، الأمر الذي يؤكد أن التجار وربان المراكب هم رواة هذا الضرب من الأخبار. وهذه قرينة خطابية تثبت حضور مبدأ الاختلاط بعناصر الحدث ومعايشة وقائعه، الأمر الذي يمدّ الخبر بمصداقية تبعده، إلى حد متوسط، عن معطيات التخييل ومقوماته.

على هذا الأسـاس وردت إشـارة الراوي/التاجر إلى **بنات الماء** في معرض حديثه عن التجارة وأخبارها وما يرتبط بذلك من وقائع وأحداث، كان لمدلول المفاجأة ووقع الصـدفة أثر قوي في بناء التشويق وصياغته. وهكذا، ألقت العواصف والأمواج، نتيجة عامل الصدفة، بسفينة الراوي ومن معه إلى جزيرة مجهولة؛ لم يكن لركابها معرفة بتقاليد سـكانها، وبأسـاليب حياتهم وطرق عيشـهم وعادات تجارتهم ونمط تفكيرهم. ومع كل ذلك يُفهم من سياق الخبر أن ركاب السفينة استطاعوا أن يدركوا، فيما يتعلق بشـؤونهم التجارية، أن السـلع المتوفرة في هذه الجزيرة هي «**الرقيق**» فقط. وذلك ما أثار فضول الراوي واهتمامه به إلى درجة وصفه فيها بنوع من التفصيل قائلا[2]:

«فأتوْنا **بالرقيق** ما رأينا أحسن منه ضحكا، يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة[3] وأجسـام كأنها الزبد نعومة ويكادون يطيرون خفة ونشـاطا **غير أن رؤوسـهم**

(1) نفسه، ص: 33 – 34.

(2) في طول النص بتفاصيله ما يساعد على رسم معالم بنات الماء

(3) قد يكون تحريف عذبة، أي جميلة وفاتنة.

صــغار، وتحت كشــح كل منهم جناحان كجناحي الســلحفاة لا تغادر. فقلنا لهم: «ما هذا؟» فتضـــاحكوا وقالوا :«أهل هذه الجزيرة **كلهم كذلك** وما عليكم من ذلك» وقلنا: «هذه فرصـــة ورأيناها غنيمة» (...) وطمعنا وطمع رباننا في العودة بمركبه (...) فلما غابت الجزيرة بكى الرقيق الذي معنا فضـــاقت صـــدورنا (...) فقام الرقيق جميعهم [بعد ذلك] يرقصـــون ويغنون ويتضـــاحكون فأعجبنا ذلك منهم (...) فما أن أصـــاب هؤلاء منا غفلة [حتى] تطايروا، والله، في البحر تطاير الجراد والمركب يجري في موج كالجبال، وكالبرق الخاطف (...) ونحن نســمعهم يغنون ويصــفقون ويتضـــاحكون فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوســـهم ذلك إلا باقتدار لهم على هول البحر (...) فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج كبير. فلما مضـى أولائك نزل أبي إلى البلنج فوجدها تريد أن تثقب وتطرح نفســها في البحر فضبطها وقيدها وسرنا إلى أن دخلنا بلاد الهند (...) فلما سمع الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزاير بعينها قد أُخِذ [منها] صـــغيرا وبقي في الهند إلى أن هرم فقال لنا: «أنتم وقعتم إلى جزاير تســـمى جزاير الحوت وهي بلدي، ونحن قوم نزل رجالنا على **إناث حيوان البحر** واضــطجعت نســواننا **لذكران حيوان البحر**، فتنتج بينهم خلق مشــتبهون بين هؤلاء وأولائك، فيجتمع المشــتبهة ومشــتبه المشــتبهة وذلك في قديم الدهور. وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم، وأقامت عنده ثمانية عشرة سنة مقيدة...»

يتضـــح من حجم النص وكثافة وقائعه اشـــتمالُه على عدد كبير من القضـــايا المختلفة والموضـــوعات المتنوعة، ولذلك تقتضـــي منا قراءة النص ومعالجة عناصـــر خبره وتحليل مكونات خطابه أن نركز على القضـــايا الكبرى باعتبارها محاور قد انتظمت حولها جملة من العناصـــر الســـردية وتفرعت عنها زمرة من الموضـــوعات الوظيفية. ولهذا، فمن بين ما أثاره النص مســـألتان اثنتان:

الأولى: وهي مسألة **المحددات التميزية** والخصائص الوصفية التي تنفرد بها **بنات الماء**/الرقيق.

الثانية: وهي مسألة **التوالد بين جنسين مختلفي النوع**.

1.2.3.2. الخصائص المميزة في «عجائب الهند...»

يفهم من النص، فيما يخص المسألة الأولى، جملة أمور نعرضها على الشكل التالي:

الأمر الأول: وهو أن **بنات الماء** جنس مختلف عن سكان الجزيرة ومغاير لأهاليها. وقد أشرنا إلى ذلك لأن الخبر ـ وإن لم يحدد طبيعة العلاقة الاجتماعية بين سكان الجزيرة وبين **بنات الماء** ـ مزود بجملة من القرائن الحكائية التي يفهم منها أن **بنات الماء** كائنات غريبة عن الجزيرة وعن سكانها، ومن ثمّ فموطنها ليس اليابسة بل البحر، بدليل ما يفهم من القرينة النصية التالية:

«فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوسهم ذلك إلا باقتدار لهم على هول البحر»

قد لا يقبل هذا الفهم بدعوى أن قرينة واحدة غير كافية. بيد أننا إذا استحضرنا قرينة أخرى تتعلق بالراوي وهي استغرابه مما شاهده، فإنها تدل على قوة الاندهاش والتعجب من انفراد **بنات الماء** ببعض الأعضاء الخاصة بها[1] أكثر من قوة انبهاره «الضمني» من سكان الجزيرة ومن عاداتهم وتقاليدهم وأساليب عيشهم، مع العلم أن فكرة **الرقيق** تقتضي تمييزا بينهم وبين أسيادهم. وقصدنا من هذا الفهم هو أن الراوي، بحكم اختلاطه بسكان الجزيرة في فترة الاستراحة مع الاستعداد للعودة إلى الوطن، ينبغي ألا يكون اندهاشه منحصرا في **بنات الماء**، بل المفترض أن يكون اندهاشه عاما يشمل ما يتعلق ببنات الماء وما يرتبط بنمط عيش، سكان الجزيرة.

ومن هنا اعتبرنا حضور الراوي و اندهاشه «الضمني» قرينة ثانية تقوي مدلول القرينة الأولى وهي أن طبيعة العلاقة التي تربط بين جنس **بنات الماء** وبين سكان الجزيرة هي علاقة اصطياد السكان لهذه الكائنات البحرية[2] وعرضها للبيع باعتبارها سلعا.

الأمر الثاني: بلغ اهتمام الراوي بـ**بنات الماء** إلى درجة مكنته من أن يصف بعض أعضاء هذه الكائنات وصفا فزيولوجيا[3] نحو:

. فأجسام **بنات الماء** ناعمة

. رؤوسهن صغيرة

. تحت كشح كل واحدة منهن «جناحان»

(1) غير أن رؤوسهم صغار، وتحت كشح كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة لا تغادر. عجائب الهند بره وبحره وجزايره، ص: 30.31.

(2) وفي هذا توكيد ما ذهب إليه الأبشيهي من فكرة اصطياد بنات الماء، ينظر "المستطرف في كل فن مستظرف" ص: 399.

(3)عجائب الهند بره وبحره وجزايره، ص:30.31.

يؤدي هذا الوصف في السرد، بغير شك، وظيفتين اثنتين: إحداهما ظاهرة وثانيتهما خفية. أما الوظيفة الظاهرة فهي قيام الوصف على إثبات جملة من **الخصائص المميزة والمحددات الفاصلة** بين سكان الجزيرة وبين **بنات الماء**. وأما الوظيفة الخفية فهي انتظام هذه القرائن الوصفية وتشاكلها لإثارة تعجب المتلقي واندهاشه مع إثبات غرابة جنس **بنات الماء** أيضا. وإذا فحصنا هذه القرائن الوصفية فإننا نجد في ذلك ما يقوي استنتاجنا للوظيفة الخفية، ويثبت في الوقت نفسه انسجاما بين مدلول كل قرينة وبين ما تثيره من علامات الاستغراب باعتبارها مقومات خطابية تعكس موقف المتلقي وسلوكه.

أما **الأجسام الناعمة** فإن ما يفهم منها ليونتها وفتوتها باعتبارها محددات جمالية تمهد، فيما يبدو، لكل سلوك جنسي غريب قد تثيره الحكاية.

وأما الرؤوس فقد وصفها النص **بالصغر** مركزا على حجمها. وفي ذلك انسجام مع مدلول وظيفة السباحة وما يرتبط بكل ضروب الحياة في أعماق الماء.

وأما ما يشبه «الجناحين» باعتبارها خصائص مميزة فالظاهر أن لغة الراوي بمخزونها المعجمي لم تسعفه على تسمية تلك الأعضاء، ومن ثمّ اتجه الوصف إلى استثمار أدوات التشبيه ليجعل الزعانف شبيهة بالجناحين، بهدف تقريب المتلقي مما شاهده الراوي وعاينه. فما تحت كشح هؤلاء إذن ليس جناحين ولا يمكن أن يكونا كذلك لاختلاف الجناحين عمّا يقترب جدا من الزعانف. فهما عضوان خاصان يحتاجان إلى اسم خاص بهما، ما داما يؤديان وظيفة السباحة وغيرها من الوظائف الأخرى التي لا تتحقق إلا في الماء.

هكذا تعد سمة **صغر حجم الرؤوس** وسمة **زعانف** الرقيق من بين مكونات صورة **بنات الماء**، وهي صورة عجيبة لها أثر معين في المتلقي باعتباره مشاركا في عملية إنتاج الصورة نفسها.

واضح إذن أن الحكاية مزودة بجملة من القرائن القائمة على مبدأ الخصائص **المميزة** وعلى ما تؤديه من وظائف متعددة أهمها بناء الخبر على أساس متين يفصل بين **بنات الماء** وبين بنات حواء.

1.1.2.3.2 خاصية الغناء والرقص

وفي سياق الحديث عن صورة **بنات الماء** من حيث أعضاؤها الخاصة ومميزاتها الفاصلة تظهر قرينة نصية أخرى، غير أن وظيفتها لا تكمن في رسم الحدود الفاصلة بين جنس الإنسان وجنس

بنات الماء، ولكن أهمّيتها تتجلى في الاستفهام عن تداول خبر **بنات الماء** في غير الثقافة العربية. تلك هي قرينة الغناء والرقص.

فقد ورد في النص مسألة الغناء والرقص باعتبارهما نشاطين مركزيين تمارسهما **بنات الماء** بشكل طبيعي وتلقائي. وإذا وسعنا من فهمنا لهذه الخاصية من النص فقد نقول، حسب ما يوافق الحكاية، إن **بنات الماء** لا يحْسِنَّ إلا الغناء والرقص. ومن ثم فإن في هذه الخاصية ما يذكرنا بالوظيفة الكبرى التي كانت تقوم بها **حوريات البحر** في الأساطير الإغريقية وهي إغواء الصيادين وسحرهم بغنائهن الرائع، ثم يغرقن المراكب ويأكلن الموتى والغرقى[1]

على هذا الأساس فالربط بين **بنات الماء** وحوريات البحر يفتح مجالا للبحث في أصول الخبر وفي تداوله بين الشعوب والقبائل والأمم.

2.2.3.2. الخصائص المميزة بين «تحفة الألباب...» و«عجائب الهند...»

على أية مقارنة نعتمد إذن، في تركيب صورة **بنات الماء**؟ أنأخذ صورة الغرناطي أم نأخذ صورة الرام هرمزي؟ أم نأخذهما معا؟ هل تتعارض الخصائص المميزة في **التحفة** مع ما ورد في **عجائب الهند**؟

يصعب اختيار هذا الوصف دون ذاك، أو تفضيل هذه الخصائص المميزة من تلك. ومع ذلك، إذا قبلنا ما جاء في «**تحفة الألباب...**» و«**عجائب الهند...**» من وجود اختلاف في صورة **بنات الماء** من حيث الأعضاء البيولوجية الخاصة بالبحر، فإن العنصر المشترك بينهما، من زاوية افتراضية، هو الجسم العلوي **لبنات الماء** لأن تشخيصه قد مال إلى أن يكون صدر امرأة ورأسها وشعرها وما يقتضيه ذلك من مغزى جمالي. أما الجزء السفلي فهو شبيه بذيل سمكة كبيرة.

ويعود التعارض فيما يظهر بين الخصائص المميزة في «**تحفة الألباب...**» مع ما جاء في «**عجائب الهند...**» إلى طبيعة المصادر التي اعتمدها كل كتاب على حدة، فإذا كان المحيط الجغرافي الذي اعتمدته **التحفة** هو البحر الأبيض المتوسط والمناطق القريبة منه، فإن الحياة البرية والبحرية في المحيط الهندي مصدر جوهري لأخبار كتاب **عجائب الهند**.... ولعل بُعد المسافة المكانية والزمانية بين مجتمعات المنطقتين مسوّغ يسمح باختلاف الأخبار وبتنوعها إلى حد التقابل والتضارب.

[1] J. Chevalier, A. cheerbrant, "Sirènes", in : **Dictionnaire des symboles**, ed: R. afont, S.A, 1982.

ومن منطلق هذا الفهم يظهر لنا أن الاختلاف بين عناصر تركيب صورة **بنات الماء** في «**تحفة الألباب...**» وفي «**عجائب الهند...**» لا يصل إلى درجة التناقض، وإنما هو اختلاف يقتضي أن ندرك من خلاله تعدد الوظائف التي أسندت إلى **بنات الماء**. وهي وظائف وجدناها غائبة في نصوص المسعودي والأبشيهي وغيرهما. ولهذا إذا كان الخبر يتحدث عن كائن بحري كيف كانت طبيعته فالظاهر أن الإشارة إلى عالم الماء أمر لا ينفصل من مكونات الخبر ومن قيمته التوثيقية.

وهكذا نستنتج أن الاختلاف بين النصوص في رسم معالم صورة **بنات الماء** هو اختلاف في تصور كائن ما وفق ما يسمح به المخزون اللغوي، الأمر الذي يشفع لنا بأن نقول: قد نفهم من غزارة تنوع ما قيل عن بنات الماء، وما ذكر من وصف مكونات هذا الكائن أنها **متغير** ناتج عن **الاختلاف في القدرات التخييلية، وفي تقنيات السرد، وفي أدوات التعبير، لكنها تشترك في وصف شيء لم يكن ثابتا بشكل مطرد أمام المعاينة الدقيقة والملاحظة العلمية.** وقد نجد في رأي الجاحظ ما يؤكد استنتاجنا هذا حينما قال[1]:

> «وذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر وتزيد البحريين: فقال: «البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب الزوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، وأدخلوا ما لا يكون في باب ما قد يكاد أن يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سلما إلى ادعاء المحال»»

3. كتب السرد

إذا افترضنا أن كتب السرد الكلاسيكي والقصص الشعبي قد استلهمت الكثير من أحداثها وشخصياتها وأماكنها وأزمانها وتصوراتها وأوصافها من كتب الأخبار والتاريخ[2]، فهل نجد في كتب السرد صورة **بنات الماء** كما هي في كتب الأخبار؟ أم أن هناك اختلافات مميزة خاصة بالسرد؟

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل/دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ب.ت، 2/112. 113.

(2) أظن أن كتب الأخبار كانت تلهم رواة السرد بالأحداث والكائنات والصور المتخيلة وغيرها من مكونات الثقافة الشعبية؛ إذ يكفي المقارنة بين ما جاء في كتاب المسعودي وغيره وبين ألف ليلة وليلة وسيرة الملك سيف بن ذي يزن للبرهنة على ذلك. وإذا افترضنا أن مصادر كتب الأخبار هي أقوال التجار وأحاديثهم، قلنا إن هؤلاء التجار كانوا في رحلاتهم يشاهدون أشياء غريبة أو يتوهمون رؤية أشياء عجيبة. لذلك يروون حين عودتهم ــ بصفة حتمية ــ ما

تنحصـر محاولة الإجابة عن هذه الأسـئلة في كتابين من باب التمثيل لا الحصـر. وهما كتاب **الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة**[1] وكتاب **سـيرة الملك سـيف بن ذي يزن**،[2] فمن الأول نقرأ المقطعين التاليين:

1- «فما مضت من الليل سـاعة حتى سـمعنا من البحر تصـفيقا وأصـواتا مختلفة، وإذا بجوار قد طلعن من البحر وخرجن من الجزيرة حتى أشـرفن عليها فتبسـمن في وجوهنا وقمنا إليهن فما ارتعن لقيامنا ولا هربن منا فأخذ كل واحد منا جارية فبتنا بها أحسـن مبيت وألذه لا فرق بينهم وبين نسائنا إلا أن في **جلودهن خشونة كهيئة صغار الصدف**، فلما كان السحر ضجرن وقلقن فلم نقدر على إمساكهن فولين إلى البحر حتى طرحن أنفسهن فيه»

2- إنني من **بنات البحر**، ولي أخ وأم وأب وإني صـعدت في بعض الأيام إلى جزيرة من جزاير البحر المعروف ببحر القمر، وكان قد جرى لي مع أخي مشاجرة فخرجت فأخذني رجل شيخ فآواني في منزله فما أعجبني، ثم إنه طرح علي يده فلطمته حتى كاد[3] أن يموت فأخرجني فباعني إلى هذا الرجل الذي جاء بي إليك وإلى حضـرتك (...) فقال لها كيف تمشـون في البحر؟ فقالت معنا شـيء نصـنعه وهو طلسـم من الأسـماء التي كانت على خاتم سـليمان بن داود عليه السـلام، نعمله خاتما أو شـيئا يكون على الكتف ونمشـي في درب البحر فلا يصـل إلينا الماء بل نكون [كمن يمشي] فوق الأرض، وفيه عالم أكثر مما على وجه الأرض.»

تختلف صـورة **بنات الماء** من النص الأول إلى النص الثاني، لأنهما ينتميان إلى حكايتين متباينتين. **فبنات الماء** في الأول قريبة جدا من الصـورة العامة المتداولة في كتب الأخبار لأنها حافظت على المكونات الكبرى التي رسمتها كتب الأخبار، مشيرة إلى:

1. خاصية المتعة الجنسية باعتبارها قيمة ساهمت كتب الأخبار في تداولها وعملت على تحديد ما اسند إلى بنات الماء من أحداث ووقائع.

يعتقدون أنهم شـاهدوه مما هو مخالف لما عهدوه في أمور حياتهم وفي مكونات مجتمعهم. ثم ينقل رواة السـير والقصص هذه الأخبار بوصفها مادة صالحة لإنتاج ما لا نهاية له من البرامج السردية.

(1) كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة، تحقيق: هانز فير، منشورات الجمل، 1997. ص: 61.

(2) سيرة الملك سيف بن ذي يزن، المكتبة الثقافية، الطبعة الثانية، بيروت، 1986.

(3) في النص أراد، والصواب هو كاد، في ما يبدو.

2. خاصـــية تميزية تمثلت في خشـــونة جلودهن. وهي خاصـــية تثبت، من جهة، انتماء هذه الكائنات إلى البحر، وتؤكد، من جهة ثانية، الاســـتنتاج الســـابق الذي يذهب إلى أن تنوع صفات **بنات الماء** متغير من متغيرات كائن غير موجود.

ومن ثمّ إذا كانت صورة بنات الماء في النص الأول طبيعية في بنائها فإن النص الثاني ابتعد عن الجانب الطبيعي فيها، مسـتثمرا مفاهيم السـحر والطلاسـم باعتبارها وسـائل ضـرورية **لبنات الماء** لكي يعشـــن في أعماقه. ويقتضـي هذا، أن الصـــورة الأصـــل التي انطلقت منها الحكاية هي صـــورة تجعل بنات البحر مثل بنات حواء لا فرق بينهن على الإطلاق، ولهذا لم تفصـح الحكاية في البداية عن أية قرينة تساعد المتلقي على أن يهتدي إلى أن **"جلنار"** بنت من **بنات الماء**، إلى درجة أن الملك، في الحكاية، اعتقد أنها امرأة مثل باقي النســـوة، كما اعتقد أنها خرســـاء، لامتناعها عن الكلام مدة ســـنة بكاملها. وما ســـؤال الملك عن كيفية المشـي في البحر[1]، بعد أن أعلمته بجنســـها وانتمائها إلى عالم البحر، إلا لأنه وجد جسمها مثل جسم جميع النسوة والجواري، ولم يجد طيلة سنة بكاملها مسوغا للشك في آدميتها، على الرغم من المعاشرة الزوجية بما تحمل الكلمة من معان دقيقة.

على هذا الأســـاس اتجهت الحكاية إلى اســـتثمار أدوات السـحر والطلسـم[2] وتوظيفها، لتتمكن من جعل **جلنار** بنتا من **بنات الماء**. فالغالب إذن، أن هذا المنعطف في اســـتثمار **بنات الماء** ينبني على ابتعاد الحكي عن الأصـــول الأولى التي كتبت عن **بنات الماء** ليجعل منها كائنات طبيعية لا فرق بينها وبين بنات حواء.

نســـتنتج إذن، أن التوظيف الســـردي يســـعى إلى التحرر من قيود الصـــورة التي رســـمتها كتب الأخبار **لبنات الماء** من أجل أن تحلّق مخيلة الراوي نحو البحث عن الأدوار الســـردية الجديدة. وفي ذلك إغناء للحكي وإثراء له.

ونقرأ من كتاب سيرة الملك سيف بن ذي يزن المقطع التالي:

(1) نذهب إلى أن هذا الســـؤال يتضـــمن رغبة الرواة في معرفة حقيقة هذه الكائنات، بيد أن هذه الرغبة غير معلن عنها، وما مفهوم السحر والطلسم إلا محاولة الإجابة في الحكاية.

(2) نجد الصـورة نفسـها في قصـة عروس البحر، لعادل الغضـبان، دار المعارف، الطبعة الثانية، سـلسـلة المكتبة الخضراء للأطفال. فقد استغلت القصة رغبة عروس البحر في الخروج إلى الشاطئ لاستبدال ذيلها السمكي برجليها الطبيعيين بواسطة فعل ساحرة من سحرة البحر.

والتقى [الملك سـيف] باثنين صـيادي سـمك، ومعهما شـبكة الصـيد يحملها أحدهما والثاني حامل **سـمكة مثل بني آدم وجها وصـدرا ويدين ورأسـا وشـعرا ولها فرج مثل فرج المرأة ولها إلية مغطى بها فرجها وجسـدها مثل الفضـة البيضـاء النقية إلا أن رجليها مثل أذناب السـمك** فلما نظر الملك السـمكة وهي أحسـن من لحم الضـأن وفصـيحة بالنطق باللسـان (...) وقال لها:« أنت تعرفين الكلام؟» فقالت له: «نعم» فقال لها: «وما الذي أوقعك في أيديهم وأنت في البحر؟» فقالت له: «أوقعني القضـاء والقدر الذي ما للمخلوق منه مهرب ولا مفر، وقد وقعت أنت معهم مثلي ولنا رب كريم يخلصنا من الضرّ والضيم فإني أسلمت أمري إليه وجعلت اعتمادي في كل الأمور عليه.»

واضـح من هذا المقطع أن الراوي اتبع طريقا وسـطا في توظيف هذا الكائن؛ إذ أنه احترم الخصائص المميزة **لبنات الماء** كما سجلتها كتب الأخبار. فنصفها السفلي سمكة ونصفها العلوي امرأة. ونظرا لخاصـية «**الكرامة**»[1] التي تطبع البرامج السـردية في سـيرة الملك سـيف بن ذي يزن، فإن الراوي قد انحرف عن توظيف بنات البحر في موضـوع الجنس كما تناقلته كتب الأخبار ليثبت أن أغرب الكائنات مؤمنة بالله وراضـية بقدرها وقضـائها، وفي هذا الاسـتثمار السـردي تأكيد على الحضـور الديني وعلى مدلول الكرامة بمعجزته وإعجازه حينما جعل من حديث بنت الماء حديثا عن القيم الإسلامية.

(1) يراد من الكرامة ضرب من المعجزات التي لا تصدر عن الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ولكنها تصدر عن أولياء الله الصالحين.

خلاصة:

ما نستنتجه من التنوع في وصف **بنات الماء** في كتب الأخبار والتاريخ وغيرها لا يفهم إلا باعتباره **متغيرات تخييلية لشيء** إذا افترضنا وجوده في الواقع الطبيعي فهو خارج عن الوصف اللغوي، وفارغ من التحديد المعجمي. ومن ثم تصبح هذه الصورة، في مجملها، مطردة في كثير من المظاهر الثقافية، وهي غير مختلفة كثيرا عما رسمته الأساطير اليونانية بتوسعها الممتد في الخرافات الغربية عبر زمن طويل. فما يقابل **بنات الماء** من ناحية قرائن لغوية متعددة هو ما يعرف، تقريبا، باسم **حورية البحر** أو **عروس البحر La sirène**.

وما يلاحظ من خلال الأوصاف المختلفة التي ألحقتها كتب الأخبار وكتب السرد بـ**بنات الماء** أمران اثنان:

يشير الأول إلى أن العنصر الثابت، بصفة عامة، في صورة **بنات الماء** هو التركيب بين مكونات بشرية وبين مكونات سمكية، وقد ساوق هذا التركيب المورفولوجي تركيب لغوي جمع بين دالين: مدلول أحدهما بشري والآخر بحري.

أما الثاني فيثير موضوع العلاقة الجنسية **ببنات الماء**، بشهادة أغلب النصوص، سواء كانت الشهادة صريحة أم غير صريحة. ومهما يكن من أمر التفاصيل الفرعية فإن ارتباط موضوع الجنس **ببنات الماء** يفرض زمرة من الأسئلة، إذ كيف تتأسس العلاقة الجنسية بين **بنات الماء** والإنسان، أو بين إنسان الماء وبنات حواء على ضوء المكونات الفزيولوجية المغايرة لكلا الجنسين؟ ومن ناحية أخرى ما هو موقع التوالد بين جنسين مختلفين في الثقافة العربية بصفة عامة والثقافة الشعبية بوجه خاص؟